الفصل الثاني

نزول الوحي والدعوة السرية

المبحث الأول

نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين ﷺ

كان النبي ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفذ الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالٍ أخرى[1]، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة، داخل غار حراء [2]، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاري (أبو الصحاح وكتب السنن والمسانيد وكتب التاريخ)، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فَيَتحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن يَنْزع إلى أهله ويتزودُ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: الآيات ١ ـ ٣]، فرجع بها رسول الله ﷺ يَرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملوني! زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خَشِيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ[3]، وتَكْسِب المعدومَ[4]، وتَقْرِي الضيفَ، وتعين على نوائب الحق[5]، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابنَ عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبرانيَّ، فيكتبُ

---

(١) انظر: صحيح السيرة للعلي (ص ٦٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٥).

(٣) تحمل الكل: تنفق على الضعيف، واليتيم والعيال، والكل أصله: الثقل والإعياء.

(٤) وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

(٥) نوائب الحق: الكوارث والحوادث.

من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابنَ عَمٍّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس[١] الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جَذَعًا[٢]، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِي هم؟» قال نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عوديَ، وإن يدركْني يومُك أنصرْك نصرًا مؤزرًا[٣]، ثم لم يَنشَب ورقةُ أن توفي، وفتر الوحي[٤]»[٥].

عندما نتأمل في حديث السيدة عائشة يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمة تتعلق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ ومن أهمها:

أولاً: الرؤيا الصالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن أول ما بُدِيء به محمد ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وتسمى أحيانًا بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى طيبة ينشرح لها الصدر، وتزكو بها الروح[٦]، ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله ﷺ بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا، وأتاه الملك فجأة، لم يسبق له أن رأى مَلَكًا من قبل فقد يصيبه شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئًا، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولاً في المنام؛ ليتدرب عليه ويعتاده[٧]. والرؤيا الصادقة الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما ورد في الحديث الشريف[٨]، وقد قال العلماء: وكانت مدة الرؤيا الصالحة ستة أشهر، ذكره البيهقي، ولم ينزل عليه شيء من القرآن في النوم بل نزل كله يقظة.

والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «أيها الناسُ، إنه لم يَبْقَ من مُبَشِّرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له»[٩].

فكان ﷺ قبل نزول جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، يرى الرؤى الجميلة، فيصحو منشرح الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال[١٠]، لقد أجمعت الروايات من

---

(١) الناموس: هو جبريل عليه السلام، صاحب سر الخير.

(٢) جذعًا: شابًا قويًّا.

(٣) مؤزرًا: قويًّا بالغًا.

(٤) فتر الوحي: تأخر نزوله.

(٥) البخاري، كتاب بَدء الوحي (رقم ٣).

(٦) انظر: طريق النبوة والرسالة، د. حسين مؤنس (ص ٢١).

(٧) انظر: منامات الرسول ﷺ، عبد القادر الشيخ إبراهيم (ص ٥٧).

(٨) انظر: الرؤيا ضوابطها وتفسيرها، هشام الحمصي (ص ٧).

(٩) ابن ماجه، كتاب تعبير الرؤيا (رقم ٣٨٩٩) حسن الإسناد، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣١٦١/٣٩٦٨).

(١٠) انظر: طريق النبوة والرسالة (ص ٢٢).

حديث بدء الوحي أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء، كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبَّهت السيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي من أفصح العرب ـ ظهور رؤيا رسول الله ﷺ، إذا استيقظ بها، من كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهوتصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبلغ منه[١].

ثانيًا: ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه:

وقبيل النبوة حُبب إلى نفس النبي ﷺ الخلوة، ليتفرغ قلبه، وعقله، وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء مُتَعَبَّدًا، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغًا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود[٢]، والغار الذي كان يتردد عليه الحبيب المصطفى ﷺ يبعث على التأمل والتفكر، تنظر إلى منتهى الطرف فلا ترى إلا جبالاً كأنها ساجدة متطامنة لعظمة الله، وإلا سماءً صافية الأديم، وقد يرى من يكون فيه، مكة إذا كان حاد البصر[٣].

كانت هذه الخلوة التي حُببت إلى نفس النبيِّ ﷺ لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية، إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلٰهية، والتأديب الرباني في جميع أحواله، وكان تعبده ﷺ قبل النبوة بالتفكر في بديع ملكوت السماوات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه، وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه[٤].

وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر، والعبادة، في مرحلة من مراحل السلوك؛ لتنوير قلبه، وإزالة ظلمته، وإخراجه من غفلته، وشهوته وهفوته، ومن سنن النبي ﷺ سنة الاعتكاف في رمضان[٥]، وهي مهمة لكل مسلم سواء كان حاكمًا أو عالمًا أو قائدًا، أو تاجرًا؛ لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنّة، ونُحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسب[٦].

ويمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة، وماهي عليه من قوة أو ضعف، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد صادق عرجون (١/ ٢٥٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٥٦).

(٤) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٤٦٩).

(٥) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ١٩٥).

(٦) انظر: فقه السيرة للغضبان.

وفي قول السيدة عائشة: «فيتحنث الليالي ذوات العدد» يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلة ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النبي ﷺ قبل البعثة من التوسط والاقتصاد في الأعمال، شعارًا للملة الإسلامية، ورمزًا للهَدْي النبوي الكريم، بعد أن أرسله الله رحمة للعالمين»[١].

ثالثًا: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال اقرأ:

قال: «قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العَلق: الآيات ١ ـ ٣] .

لقد كانت هذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله تعالى أن علّم الإنسان مالم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة، والعلم، تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان[٢]، وبهذه الآيات كانت بداية نبوة محمد ﷺ، لقد كان هذا الحادث ضخمًا. لقد عبر عنه الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله فقال: «إنه حادث ضخم، ضخم جدًّا. ضخم إلى غير حد، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد ـ بغير مبالغة ـ هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يُرى، اسمه الأرض. وكرّم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلٰهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده ـ سبحانه ـ بهذه الخليقة..»[٣].

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة[٤].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العَلق: الآية ١] .

---

(١) المختار من كنوز السنة (ص ١٩) ط ٢/ ١٩٧٨ دار الأنصار، القاهرة.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٦، ٣٩٣٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٦٠).

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: الآية ١١] ، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

إن مصدر العلم النافع من الله ﷻ، فهو الذي علّم بالقلم، وعلّم الإنسان مالم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها وسببًا في إبادتها[١].

رابعًا: الشدة التي تعرّض لها النبي ﷺ ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي ﷺ مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ٥] . كان في ذلك حكمة عظيمة لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تتنعم به ماجاءها إلا بعد شدة وكرب[٢].

إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن، والقوانين الطبيعية، حيث تلقّى النبي ﷺ كلام الله (القرآن) بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام، وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام[٣] أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره، فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ[٤].

إن حقيقة الوحي هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين، بعقائده وتشريعاته، وأخلاقه، ولذلك اهتم المستشرقون، والملاحدة من قبلهم، بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يأولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها، عما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، فقائل يقول: إن محمدًا ﷺ تعلم القرآن ومبادىء الإسلام من بَحِيرا الراهب، وبعضهم قال بأن محمدًا كان رجلاً عصبيًا أو مصابًا بداء الصرع[٥].

---

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٣٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٠، ٣١).

(٣) أي حديث النفس المجرد.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٩).

(٥) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٦٤).

والحقيقة تقول: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء فوجيء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس، وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة: اقرأ، يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ماقد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخليًا فقط.

ولقد أصيب النبي ﷺ بالرعب والخوف مما سمع، ورأى، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن متشوقًا للرسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للناس[1]، وقد قال تعالى تأكيدًا لهذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآيتان ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: الآيتان ١٥، ١٦].

لقد تساقطت آراء المشككين في حقيقة الوحي، أمام الحديث الصحيح الذي حدثتنا به السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد استمر الوحي بعد ذلك يحمل الدلالة نفسها على حقيقة الوحي، وأنه ليس كما أراد المشككون. وقد أجمل الدكتور البوطي هذه الدلالة فيما يلي:

١ - التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورًا، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه باللفظ نفسه والحروف نفسها بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عزّ وجلّ الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو.

٢ - كان النبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور، فلا يُجيب عنها، وربما مرّ على سكوته زمن طويل، حتى تنزل آية من القرآن في شأن سؤاله. وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عتب أو لوم له.

٣ - كان رسول الله ﷺ أميًا.. وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف عليه السلام، وأم موسى، حينما ألقت وليدها في اليم.. وقصة

(١) المصدر نفسه (ص ٦٤).

فرعون، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أميًّا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٨].

٤ - إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه، واشتهاره فيهم بذلك، يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقًا مع نفسه، ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره، وكأن هذه الآية جاءت ردًا لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يُونس: الآية ٩٤].

ولهذا روي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشك ولا أسأل»[(١)].

خامسًا: أنواع الوحي:

تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

١ - الرؤيا الصادقة:

وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

٢ - الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في روعه - أي قلبه من غير أن يراه - كما قال عليه الصلاة والسلام «إن روح القدس نَفَثَ في رُوعي»[(٢)] أي: إن جبريل نفخ في قلبي «أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب...»[(٣)].

٣ - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس: أي مثل صوته في القوة، وهو أشدُّه، كما في حديث عائشة: أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجَرَس وهو أشده علي، فَيُفصَم عني وقد وَعَيْتُ ماقال، وأحيانًا يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ٢٠٢- ١٧٨٩٤) بسنده عن قتادة، تفسير القرطبي (٨/ ٣٤٠)، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس، قال: «لم يشك رسول الله ولم يسأل» ورقمه (١٠٥٨٣) جـ ٦/ ١٩٨٦، وقال الشيخ أحمد شاكر في مختصر ابن كثير له: إن قول ابن عباس هذا أقوى وأثبت من قول قتادة (جـ ٥/ ٨٨)..

(٢) حديث صحيح بشواهده (زاد المعاد: ١/ ٧٨) مؤسسة الرسالة.

(٣) المصدر نفسه (زاد المعاد: ١/ ٧٩).

(٤) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٢).

٤ ـ **ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك**، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء[١].

٥ ـ **أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها**، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ ـ **أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا**، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا[٢].

هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

لقد كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ بداية عهد جديد في حياة الإنسانية، بعدما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظلام.

وكان وقع نزول الوحي شديدًا على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس، وأقواهم قلبًا، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة، وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام، وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفًا رهيبًا ومسئولية عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها[٣].

ومما يصور رهبة هذا الموقف ماجاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ: «لقد خشيت على نفسي» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله، من حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: «ولقد رأيته ـ تعني رسول الله ﷺ ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[٤] وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان نبي الله ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحي كُرِبَ لذلك وتربَّد وجهه»[٥].

سادسا: أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

(فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملوني زملوني»! فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت

---

(١) انظر: الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، أسامة عبد القادر (ص ١٠٨).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي (١/ ٦٠).

(٤) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٢)؛ مسلم، كتاب الفضائل (رقم ٢٣٣٣).

(٥) مسلم، كتاب الفضائل (رقم ٢٣٣٤).

على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه[١].

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي ﷺ، فأدركت أن من جُبِلَ على مكارم الأخلاق، لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير، والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروف، كان طبيعيًّا أن ينجح في كسب غيرهم من الناس»[٢].

كانت أم المؤمنين السيد خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف، لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصة البشر[٣].

كانت موقنة بأن زوجها فيه من خصال الجبلة الكمالية، ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن له الفوز، ويحقق له النجاح والفلاح، فقد استدلت بكلماتها العميقة على الكمال المحمدي[٤]، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتصاف محمد ﷺ بتلك الصفات، أنه لن يتعرض في حياته للخزى قط، لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٤).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٣٠٧).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

الله عليها، لا تطاول ولا تسامي[١].

ولم تكتف خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النبي ﷺ على نبوته، بل ذهبت إلى ابن عمها العالم الجليل ورقة بن نوفل، رحمه الله، الذي كان ينتظر ظهور نبي آخر الزمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب عن دنو زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثر طيب في تثبت النبي ﷺ وتقوية قلبه، وقد أخبر النبي ﷺ بأن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم، الذي يكون سفيرًا بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النبي ﷺ قوله:

لجِجْتُ وكنتُ في الذكرى لجوجًا ... لهَمٍّ طالما بَعَثَ النَّشِيجا
ووصفٍ من خديجةَ بَعدَ وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكَّتين[٢] على رجائي ... حديثك أن أرى منه خُروجَا
بما خَيَّرْتنا من قول قَسٍّ ... مِنَ الرهبان أكرهُ أن يَعُوجا
بأن محمدًا سيسود فينا ... ويَخْصِم من يكونَ له حَجيجا[٣]

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النبي ﷺ وشهد له النبي ﷺ بجنة، فقد جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله عن ورقة، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» قال الهيثمي: وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: «أبصرته في بُطنان[٥] الجنة وعليه السندس»[٦].

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي ﷺ، لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية، التي تقوم على الأخلاق العالية، من الرحمة، والحلم، والحكمة، والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرسول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزوجة المثالية، لأنه قدوة للعالمين، وخاصة للدعاة إلى الله، فقيام

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١/ ٢٣٢).
(٢) المكتين: جانبا مكة، أو بطاحها وظواهرها.
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٩١، ١٩٢).
(٤) المستدرك (٢/ ٦٠٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.
(٥) بُطنان: البُطنان من الشيء: وسطه.
(٦) رواه أبو يعلى برقم (٢٠٤٧) جـ ٤/ ٤١، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٦) وقال: فيه مجالد ـ وهذا مما مُدِح من حديث مجالد ـ وبقية رجاله رجال الصحيح، وأورده عن جابر أيضًا، وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير مجالد وقد وثق... إلخ.

خديجة بذلك الدور الكبير، إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية، بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية، التي يسعون لتحقيقها(١).

إن السيدة خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة، لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة. ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسالة، هَمٌ على ضياع أمته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهَمٌ لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، من مؤامرات وظلم وجوع، وإذلال، وما يصيب الدعاة منهم من تشريد وتضييق وتنكيل، وبعد ذلك هو صاحب رسالة؛ واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلب وقتًا طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه وراحته، وأوقات زوجته وأبنائه، ويتطلب تضحية بالمال والوقت، والدنيا بأسرها، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزوجة من الأخلاق والتقوى والجمال والحسب ما أوتيت، إنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تمامًا مايقوم به الزوج، وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته، وتعينه عليها، لا أن تقف عائقًا وشوكة في طريقه(٢).

إن المرأة الصالحة لها أثر في نجاح الدعوة، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة، رضي الله عنها، وما قامت به من الوقوف بجانب النبي ﷺ، وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة، لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة، ذات كفاءة، فإن ذلك من أهم نجاحه مع الآخرين(٣)، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»(٤).

سابعًا: وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسول الله ﷺ مثالاً عاليًا للوفاء، ورد الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة، في حياتها، وبعد مماتها، وقد بشرها ﷺ ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا، وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يارسول الله، هذه خديجة قد أتتك، معها إناء فيه إدام ـ أو طعام أو شراب ـ فإذا هي أتتك فاقرأ

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦٩).

(٢) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلالي (ص ٤٠).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٦٨).

(٤) رواه مسلم ـ كتاب الرضاع (رقم ١٤٦٧، ص ١٠٩٠).

عليها السلام من ربها ﷻ ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قَصَب[١] لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[٢].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: ماغرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذَبَحَ الشاة ثم يُقطّعُها أعضاءً ثم يبعثها في صدائقِ خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجةُ؟ فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»[٣].

وأظهر ﷺ البشاشة والسرور لأخت خديجة، لما استأذنت عليه لتذكُّره خديجة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة[٤]، فارتاح لذلك، فقال: «اللهم هالةُ بنت خويلد»، فغِرْت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراءِ الشدقين[٥]، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها[٦]، وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبين أن حفظ العهد من الإيمان[٧].

ثامنًا: سنة تكذيب المرسلين:

(يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخرجي هم»؟ قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[٨]، فقد بيّن الحديث سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل، وهي التكذيب والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٥٦].

وكما قال قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: الآية ١٣].

---

(١) يعني من لؤلؤ أو ذهب.

(٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٨٨٧ رقم ٢٤٣٢).

(٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢ ـ ح ٣٨١٨).

(٤) يعني لتشابه صوتيهما.

(٥) يعني لا أسنان لها من الكبر.

(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص ١٨٨٩ رقم ٢٤٣٧).

(٧) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/ ٧١).

(٨) البخاري، كتاب بدء الوحي (ح ٣) واللفظ له؛ مسلم ـ كتاب الإيمان (٢/ ١٩٧ـ ٢٠٤) ح [٢٥٢ـ (١٦٠)].

تاسعًا: قوله (وفتر الوحي):

تحدث علماء السيرة قديمًا وحديثًا عن فتور الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروح، وليحصل له التشوق إلى العود(١).

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث - أي بحديث النبي ﷺ - عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدَّثِّر: ١ - ٥] فحَمِي الوحى وتتابع»(٢).

وقال صفي الرحمٰن المباركفوري: «أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح(٣).

وأما ما جاء بلاغًا أنه ﷺ حَزِن حزنًا جعله يغدو ليتردى من شواهق الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة، ويبشره بأنه رسول الله، فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي ﷺ(٤) (٥).

المبحث الثاني

الدعوة السرية

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

عرف النبي ﷺ معرفة اليقين أنه أصبح نبيًّا لله الرحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدَّثِّر: ١ - ٤].

---

(١) فتح الباري: (١/ ٣٦).

(٢) البخاري، بدء الوحي (رقم ٤).

(٣) انظر: الرحيق المختوم (ص ٧٩، ٨٠).

(٤) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٥) تعليق: ما ورد حول روايات هَمِّ رسول الله ﷺ بالتردي من شواهق الجبال في مدة فترة الوحي، يُرجع فيه إلى فتح الباري - على سبيل المثال - (جـ ١/ ٢٧، جـ ١٢/ ٣٥٢، ٣٥٩- ٣٦١) وإلى معالجة الشيخ العلامة محمد الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله ﷺ) جـ ١/ ٣٨٥- ٤٥٨- على سبيل المثال أيضًا - ليقف على الاجتهادات والفهوم النبيلة، التي لا تقصد إلا الوصول إلى ما يتفق مع جلال هذا الدين، ومستيقنات أركانه الركينة، رَحِمَ الله ورَضِيَ عن أئمة هذا الدين وعلمائه المكرمين (المراجع).

كانت هذه الآيات المتتابعة إيذانًا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنه أمامه عمل عظيم، يستدعي اليقظة والتشمير، الإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته[١].

وتعد هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعة. وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور، هي خلاصة الدعوة المحمدية، والحقائق الإسلامية، التي بني عليها الإسلام كله، وهي الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النفع[٢].

كانت هذه الآيات تهييجًا لعزيمة رسول الله ﷺ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قُدُمًا بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كان هذا النداء المتلطِّف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدَّثِّر: الآية ١] إيذانًا بشحذ العزائم، وتوديعًا لأوقات النوم والراحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنهوض: ﴿قُمْ﴾ في عزيمة ناهضة، وقوة حازمة، تتحرك في اتجاه تحقيق واجب التبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفردًا عن التبشير، في أول خطاب وجَّه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي، إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والجهاد المرير، ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشدِّ أزره، وحضِّه على المضي قُدمًا إلى غاية ما أُمر به، غير عابىء بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها، فقيل له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي لا تعظم شيئًا من أُمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخشى أحدًا منهم، ولا تعظِّم إلا ربك، الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، فربّاك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده، حتى أخرجك للناس نبيًّا ورسولاً، بعد أن أعدّك خَلْقًا وخُلُقًا لتحمل أمانة أعظم رسالاته، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فكل تعظيم وتكبير، وإجلال، حقٌّ لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته[٣].

وفي قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، فكأنه قيل له ﷺ: فأنت على طهرك، وتطهُّرك بفطرتك، في كمال إنسانيتك، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدَّك بها ليومك هذا، أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخُلق الاجتماعي، صبرًا، وحلمًا، وعفوًا، وإحسانًا، ودُؤوبًا على الجد، في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، ولا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[٤].

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٩٠).

(٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، د. كامل سلامة (ص ١٨١).

(٣) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١) بتصرف كبير.

(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٩٢، ٥٩٣) بتصرف كبير.

وفي قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾؛ فكأنه قيل لهﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرةً وطبعًا هَجْرَه تكليفًا وتعبُّدًا، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك[١].

ثانيًا: بدء الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إلى الله، وإلى الإسلام سرًّا، وكان طبيعيًّا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

١ ـ إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق السيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إلى الوحي الإلهي، من فم الرسول الكريم، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم، وكانت كذلك أول من تعلّم الصلاة عن رسول الله ﷺ، فبيتها هو أول مكان تُلي فيه أول وحي، نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[٢].

كان أول شيء فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتوحيد، إقامة الصلاة. وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء، والصلاة، حين افتُرضت على رسول الله؛ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهَمز له بعَقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر ليُريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به، وصلى النبي ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام، فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها، يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ، ثم صلّى بها رسول الله ﷺ كما صلّى به جبريل عليه السلام[٣].

٢ ـ إسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وبعد إيمان السيدة خديجة دخل علي بن أبي طالب في الإسلام، وكان أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين، على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إسحاق[٤]، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربى في حجر رسوله ﷺ قبل الإسلام، حيث أخذه من عمه أبي طالب وضمه إليه[٥]، وكان علي رضي الله عنه ثالث من أقام الصلاة بعد رسول الله، وبعد

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥٩٢، ٥٩٣) بتصرف كبير.

(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر (ص ٣٦).

(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٢٤٤)؛ من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤١).

(٤) السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

(٥) ابن هشام (١/ ٢٤٦).

خديجة رضي الله عنها [١].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، ليضمّهما ذلك البيت الطاهر، التقي بالإيمان، المفعم بصدق الوفاء وكرم المَنْبِت[٢].

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه :

هو أول من آمن بالدعوة من الموالي[٣]، حِبّ النبي ﷺ، ومولاه، ومُتَبَنّاه: زيد بن حارثة الكلبي، الذي آثر رسول الله على والده وأهله؛ عندما جاءوا إلى مكة لشرائه من رسول الله ﷺ، فترك رسول الله الأمر لزيد فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، وأنت مني بمنزلة الأب والعمّ، فقال له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبدًا[٤].

٤ ـ إسلام بنات النبي ﷺ:

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية، فقد تأثرنَ قبل البعثة بوالدهن ﷺ في الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام، والوقوع في الآثام. وقد تأثرن بوالدتهن، فأسرعن إلى الإيمان[٥]، وبذلك أصبح بيت النبي ﷺ أول أسرة مؤمنة بالله تعالى، منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما حباه الله به من مزايا، وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان، وتلاوة القرآن وإقام الصلاة فهو:

- أول مكان تُلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.
- وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولى سابقة السبق إلى الإسلام.
- وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.
- وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلى الإسلام، خديجة وعلي وزيد ابن حارثة.

---

(١) عيون الأثر، ابن سيد الناس (١/ ١١٥).

(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٢).

(٣) يطلق المولى على السيد، وعلى المملوك الذي أُعتق وهو المراد هنا.

(٤) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، د. محمد قلعجي (ص ١٩١).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

● وهو أول بيت تعهد بالنصرة ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده ـ كبارًا أو صغارًا ـ عن مساندة الدعوة[١].

يحق لهذا البيت أن يكون قدوة، ويحق لربته أن تكون مثالاً ونموذجًا حيًّا لبيوت المسلمين، ولنسائهم، ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة، مخلصة، وزيرة الصدق والأمان. وابن العم المحضون والمكفول، مستجيب ومعضّد، ورفيق، والمُتَبَنَّى مؤمن صادق مساعد ومعين. والبنات مصدّقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات[٢].

وهكذا كان للبيت النبوي مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا والأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة، ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا ورسولاً[٣].

إن الحقيقة البارزة في المنهج الرباني تشير إلى أهمية بناء الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، كأول حلقة من حلقات الإصلاح، والبناء، ثم المجتمع الصالح، ولقد تجلت عناية الإسلام بالفرد المسلم وتكوينه، ووجوب أن يسبق أي عمل آخر، فالفرد المسلم هو حجر الزاوية في أي بناء اجتماعي، ولهذا كانت الأسرة التي تستقبل الفرد منذ ولادته، وتستمر معه مدة طويلة من حياته، بل هي التي تحيط به طوال حياته، هي المحضن المتقدم الذي تتحدد به معالم الشخصية، وخصائصها وصفاتها، كما أنها الوسيط بين الفرد والمجتمع، فإذا كان هذا الوسط سليمًا قويًّا أمد طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسلامة والقوة[٤].

ولهذا اهتم الإسلام بالأسرة واتجه إليها، يضع لها الأسس التي تكفل قيامها، ونموها نموًّا سليمًا، ويوجهها الوجهة الربانية، لتكون حلقة قوية في بناء المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية التي تسعى لصناعة الحضارة الربانية في دنيا الناس[٥].

٥ ـ إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخص أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وفيه قال رسول الله ﷺ: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام، إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عَكَم[٦] حين دعوته، ولا تردد

(١) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٣).
(٢) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين (ص ٤٥).
(٣) المصدر السابق (ص ٤٦).
(٤) انظر: دولة الرسول من التكوين حتى التمكين، د. كامل سلامة (ص ٢٠٨).
(٥) المصدر نفسه (ص ٢٠٨).
(٦) ما تلبث بل سارع.

فيه»[١]، فأبو بكر صاحب رسول الله ﷺ، وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام، لم يكن إسلامه إسلام رجل، بل كان إسلامه إسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

- كان رجلاً مألفًا لقومه محببًا سهلاً.
- وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر.
- وكان رجلاً تاجرًا.
- ذا خلق ومعروف.
- وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته[٢].

لقد كان أبو بكر كنزًا من الكنوز، ادخره الله تعالى لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافًا، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[٣]. وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق رضي الله عنه النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها، وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علمًا لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائمًا، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التاجر الأول في مكة، فو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه، تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه[٤]، كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيمًا، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

- عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في الرابعة والثلاثين من عمره.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧١).

(٣) أورده الألباني في صحيح الجامع الصغير (جـ ١/ ٣٠٨ ورقمه ٩٠٨).

(٤) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ١١٥).

- عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، في الثلاثين من عمره.
- سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، وكان في السابعة عشرة من عمره.
- والزبير بن العوام، رضي الله عنه، وكان في الثانية عشرة من عمره.
- وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، وكان في الثالثة عشرة من عمره[١].

«كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر، رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى، التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله، وأيّده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنين، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق، ولا يلحق بهم لاحق، في تاريخ الإسلام»[٢].

إن تحرك أبي بكر رضي الله عنه في الدعوة إلى الله تعالى يوضح صورة من صورة الإيمان بهذا الدين، والاستجابة لله ورسوله ﷺ، صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة، سرعان ما تخمد، وتذبل وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكر وحماسته إلى أن توفاه الله جل وعلا، لم يفتر، أو يضعف، أو يملّ، أو يعجز.

ونلاحظ أن أصحاب الجاه لهم أثر كبير في كسب أنصار للدعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكر رضي الله عنه، في الإسلام أكثر من غيره[٣].

بعد أن كانت صحبة الصديق لرسول الله تعالى، مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي، صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر، وأُنس الناس به، ومكانته عندهم، قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له عليه الصلاة والسلام من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس[٤].

ومضت الدعوة سرية وفردية تقوم على الاصطفاء، والاختيار للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة، التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام، ودعوة الخلق إلى دين رب العباد، والتي ستقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/١١٦).

(٢) انظر: محمد رسول الله، عرجون (١/٥٣٣).

(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى (ص ٦٢).

(٤) انظر: خاتم النبيين لأبي زهرة (ص ٣٩٨).

٦ ـ الدُّفعة الثانية:

جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فأول من أسلم من هذه الدفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمة رسول الله ﷺ «برة بنت عبد المطلب»، وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة وعبد الله ابنا مظعون، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل، أخت عمر بن الخطاب، وزوجة سعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وعائشة بنت أبي بكر وخباب بن الأرت حليف بني زهرة[١].

٧ ـ الدُّفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود بن الحارث، ابن شَمْخ بن مخزوم... بن هُذَيل، ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعيد بن عبد العزى بن حَمالة من القارَة.

وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخُنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيهة بنت يسار، وأخوهما مَعْمَر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنَّحَّام بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر، وفهيرة وأمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامرأته أُمَينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد، وعامر وعاقل، وإياس بنو البُكَير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عَنْسى من مَذْحج.

وصُهيب بن سنان، هو (سابق الروم).

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه[٢].

ومنهم بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا[٣].

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٨٧).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٥ إلى ٢٦٢).

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام في مكة، وتُحدِّثَ بِهِ[١].

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة: إنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك ـ وجانب الصواب بعض كُتَّاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، عندما وصفوهم بأنه «كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟».

وبقولهم: «كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها، أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين، والموالي والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي».

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين، والموالي والأرقاء، والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر. ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

إن الذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم، بالحق الذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيه ﷺ، يشترك في ذلك الشريف والرقيق، والغني والفقير، ويتساوى في هذا أبو بكر وبلال وعثمان وصهيب[٢] ﷺ.

يقول الأستاذ صالح الشامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء، ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية ـ لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة ـ ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية، يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء، وأصحاب السلطة والنفوذ، ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون. إن هذا لم يدر بخلد أي من المسلمين وهو يعلن إسلامه، إنهم يدخلون في هذا الدين على اعتبارهم أخوة في ظل هذه العقيدة. عبادًا لله، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان، ما سبق لهم أن عانوها، أو فكروا بها[٣].

لقد كان الإسلام ينساب إلى النفوس الطيبة، والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة، التي هيأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل، خديجة، وأبو بكر، وعلي، وعثمان، والزبير،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٢).

(٢) انظر: من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤٠).

(٣) انظر: من معين السيرة، صالح الشامي (ص ٤٠).

وعبد الرحمٰن، وطلحة، وأبو عبيدة، وأبو سَلَمة، والأرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر، وسعد بن أبي وقاص، وفاطمة بنت الخطاب، وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة، وغيرهم، ﷺ، وهم من سادة القوم وأشرافهم[١].

هؤلاء هم السابقون الأولون الذين سارعوا إلى الإيمان والتصديق بدعوة النبي ﷺ.

ثالثًا: استمرار النبي ﷺ في الدعوة:

استمر النبي ﷺ في دعوته السرية يدعو عددًا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة، بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول ﷺ لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول ﷺ، ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول ﷺ ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شره، ويثقون به، وهذا يعني أن الدعوة خطواتها بطيئة وحذرة، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذ كان الداخل في هذا الدين ملزمًا منذ البداية بالصلاة، ودراسة ما تيسر من القرآن - مثلاً - ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظَهْرَانَي قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يتخفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة[٢].

١ - الحس الأمني:

إن من معالم هذه المرحلة، الكتمان والسرية، حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وكان ﷺ يكوّن من بعض المسلمين أسرًا، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعداد وتدريب، لا اختفاء جبن وهروب، حسبما ما تقتضيه التدبيرات، فبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام ينظم أصحابه من أسر صغيرة، فكان الرجل يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما، عند الرجل به قوة وسعة من المال، فيكونان معه، ويصيبان منه فضل طعامه، ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئًا من القرآن عَلّمَ من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة، وحلقات تعليم.

إن المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ في تربية أتباعه هو: القرآن الكريم، وكان النبي ﷺ يربي أصحابه تربية شاملة، في العقائد، والعبادات، والأخلاق، والحس الأمني، وغيرها؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كريمة تحدثت عن الأخذ بالحس الأمني؛ لأن من أهم عوامل نهوض الأمة أن ينشأ الحس الأمني في جميع أفرادها، وخصوصًا في الصف المنظم الذي يدافع عن الإسلام، ويسعى لتمكينه في دنيا الناس، ولذلك نجد النواة الأولى

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٠).

(٢) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة.

للتربية الأمنية كانت في مكة، وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى دولة.

ولا شك أن الصحابة كانوا يجمعون المعلومات عمن يريدون دعوته للإسلام، وكانت القيادة تشرف على ذلك، ولذلك قام النبي ﷺ بترتيب جهاز أمني رفيع، يشرف على الاتصال المنظم بين القيادة والقواعد، ليضمن تحقيق مبدأ السرية.

إن السيرة النبوية غنية في أبعادها الأمنية، منذ تربية الأفراد، وحتى بعد قيام الدولة، وتظهر الحاجة للحركات الإسلامية، والدول المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية متطورة (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام والمسلمين، من أعدائها اليهود والصليبيين والملاحدة، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام، حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنية، ولا بد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم، والسنّة النبوية، وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية «إذا عرفت العدو وعرفت نفسك، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركة، وإذا عرفت نفسك، ولم تعرف العدو، فإنك ستواجه الهزيمة في كل معركة»[(١)].

كان النبي ﷺ يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتى الجوانب، ووزعهم في أسر، فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ﷺ، كانوا في أسرة واحدة، مع نعيم بن عبد الله النحام بن عدي، وكان معلمهم خَبّاب بن الأرتّ، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصرون منه على تجويد تلاوته، وضبط مخارج حروفه، ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته، بل كان همهم دراسته وفهمه، ومعرفة أمره ونهيه، والعمل به[(٢)].

كان النبي ﷺ يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم، ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركًا تمامًا أنه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعوة علنًا وجهرًا، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وقوتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لا بد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة ﵂ لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي وصحبه على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية والتنظيم، ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان آمن بعيد عن الأنظار، ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده، هو

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام (ص ١١١، ١١٢).

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية، د. عبد الغفار محمد عزيز (ص ٩٦).

خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية.

ومما يدل على أن الرسول ﷺ كان يعد أتباعه ليكونوا بناة الدولة وحملة الدعوة، وقادة الأمم، هو حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا.

ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس، لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر - غير ذلك - فلا بد من السرية التامة في التنظيم، وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون بها إلى مكان اللقاء[١].

٢ - دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقر القيادة):

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرًا لقيادة الرسول ﷺ، كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، في شعب من شعاب مكة، إذا ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بِلَحْي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»[٢].

أصبحت دار الأرقم السرية مركزًا جديدًا للدعوة، يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله ﷺ كل جديد من الوحي، ويستمعون له - عليه الصلاة والسلام - وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل مافي نفوسهم وواقعهم فيربيهم - عليه الصلاة والسلام - على عينه كما تربى هو على عين الله ﷻ، وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي ﷺ[٣].

رابعًا: أهم خصائص الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله ﷺ:

كانت الجماعة الأولى، التي تربت على يدي رسول الله ﷺ، قد برزت فيها خصائص مهمة، جعلتها تتقدم بخطوات رصينة نحو صياغة الشخصية المسلمة، التي تقيم الدولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرائعة، فمن أبرز هذه الخصائص:

١ - الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التقديم بين يديه:

إن العلم والفقه الصحيح الكامل في العقائد والشرائع والآداب وغيرها لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزل - قرآنًا وسنّة - والتزام الدليل الشرعي هو منهج الذين أنعم الله عليهم بالإيمان

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٨).

(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ١٩٨).

الصحيح[١]، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨١].

لقد كان الصحابة ﷺ - أعظم من غيرهم انتفاعًا بالدليل والوحي، وتسليمًا له؛ لأسباب عديدة؛ منها:

أ - نزاهة قلوبهم، وخلوها من كل ميل أو هوى، غير ما جاءت به النصوص، واستعدادها التام لقبول ما جاء عن الله ورسوله والإذعان والانقياد له انقيادًا مطلقًا؛ دون حرج، ولا تردد، ولا إحجام.

ب - معاصرتهم لوقت التشريع ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرسول ﷺ، ولذلك كانوا أعلم الناس بملابسات الأحوال التي نزلت النصوص فيها. والعلم بملابسات الواقعة أو النص من أعظم أسباب فقهه وفهمه وإدراك مغزاه.

جـ - وكانت النصوص - قرآنًا وسنّة - تأتي في كثير من الأحيان لأسباب تتعلق بهم - بصورة فردية، أو جماعية - فتخاطبهم خطابًا مباشرًا، وتؤثر فيهم أعظم التأثير، لأنها تعالج أحداثًا واقعية، وتعقب في حينها، حيث تكون النفوس مشحونة بأسباب التأثر، متهيئة لتلقي الأمر والاستجابة له.

فكانوا إذا سمعوا أحدًا يقول: قال رسول الله ﷺ؛ ابتدرته أبصارهم؛ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

٢ - التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان:

كان الصحابة يتعاملون مع العلم الصحيح ليس كحقائق علمية مجردة يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقة بالقلب والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله: محبته والتأله إليه، والشوق إلى لقائه، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمته، وأورثهم رجاء ماعنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم - بذلك - آثار العلم بالله والإيمان به، وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت؛ فلا ينفع مع فقدها علم، بل هو ضررٌ في العاجل والآجل[٣].

وكان الصحابة فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل، لا يمنعهم علمهم وإيمانهم الحق، وخشوعهم لله من القيام بشؤونهم الدنيوية، من بيع، وشراء، وحرث، ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون.

---

(١) انظر: صفة الغرباء، سلمان العودة (ص ٨٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٩٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ٩٧).

خامسًا: شخصية النبي ﷺ وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية، كيف لا، وأستاذها هو رسول الله ﷺ أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والقادة الربانيون، الذين حرروا البشرية من رق العبودية، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله تعالى على عينه تربية غير مسبوقة، ولا ملحوقة[١].

في دار الأرقم وفق الله تعالى رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها بالبشرية.

لقد استطاع الرسول المربي الأعظم ﷺ أن يربي في تلك المرحلة السرية، وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد والجهاد والدعوة، فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النبي ﷺ فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة، في خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعدادًا خاصًا ليؤهلهم لاستلام القيادة، وحمل الرسالة. فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة، وعمالقة الدعاة.

كانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا، وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربي بالصفوة المختار من الرعيل الأول (السابقين الأولين)، فكان ذلك اللقاء الدائم تدريبًا عمليًا لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والسمع والطاعة، والقيادة وآدابها وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله والعزيمة والإصرار، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار[٢].

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية الأولى لقاء المدعو بالنبي ﷺ، فيحدث للمدعو تحول غريب، واهتداء مفاجيء بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ، فيخرج المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه الجديد وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرك الأول للإسلام، وشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب، والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض. والعظمة دائمًا تُحَبُّ، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون،

---

(١) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢١٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٢٠).

يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإعجاب والحب، ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمته تلك، أنه رسول الله، ملتقى الوحي من الله، ومبلغه إلى الناس، وذلك بُعدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط، كما يُحب العظماء من الناس، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عبد الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلٰهي المكرم؛ ومن ثمَّ يلتقى في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية.. حب عميق شامل للرسول البشر، أو للبشر الرسول، ويرتبط حب الله بحب رسوله، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب ـ الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة ـ هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه[١].

سادسًا: المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي ﷺ في دار الأرقم القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حَرَص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتفرده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله ﷺ، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرة، فَتُسْكَب في قلوبهم، وتتسرب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدم، وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن وتنفعل به، فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد، بقيمه ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه وتطلعاته. لقد حرص الرسول لله حرصًا شديدًا على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن[٢].

في دار الأرقم تعلموا أن القرآن وحده وتوجيهات الحبيب المصطفى هما الدستور الأعلى للدعوة، والحياة، والدولة، والحضارة. كان القرآن الكريم المادة الدراسية الوحيدة التي تلقاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربي الأعظم محمد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقي، وعليه تربى الجيل الفريد من هذه الأمة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، وهو مدرستها التي تتلقى فيها دروس حياتها.

لقد تلقى الرعيل الأول القرآن الكريم بجدية، ووعي، وحرص شديد على فهم توجيهاته، والعمل بها بدقة تامة، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كل شأن من شؤون

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (ص ٣٤، ٣٥).

(٢) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢٢٥).

حياتهم الواقعية، والمستقبلية.

فنشأ الرعيل الأول على توجيهات القرآن الكريم، وجاءوا صورة عملية لهذه التوجيهات الربانية، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهية، التي تخرج فيها الدعاة والقادة الربانيون، ذلك الجيل الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً، من قبل ومن بعد، لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله، لينشىء به أمة ويقيم به دولة، وينظم به مجتمعًا، وليربي به ضمائر، وأخلاقًا، وعقولاً، ويبني به عقيدة وتصورًا وأخلاقًا، ومشاعر، فخرّج الجماعة المسلمة الأولى التي تفوقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقدية، والروحية والخلقية، والاجتماعية، والسياسية، والحربية[١].

سابعًا: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:

١ - أن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ وأصحابه بداره.

٢ - أن الأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنه، من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٣ - أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ؛ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[٢].

ثامنًا: من صفات الرعيل الأول:

الكل يعرف دوره المنوط به، والكل يدرك طبيعة الدعوة والمرحلة التي تمر بها، والكل ملتزم جانب الحيطة والحذر والسرية والانضباط التام[٣].

---

(١) انظر: دورة الرسول في التكوين إلى التمكين (ص ٣٣٥).

(٢) انظر: المنهاج الحركي للغضبان (١/ ٤٩).

(٣) انظر: دولة الرسول من التكوين إلى التمكين (ص ٢٣٧).

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فالآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وأن لا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا، أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[١].

إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

(أ) الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾:

إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ، ويوصي الناس بها بعضهم بعضًا، وتبلغ أهميتها أن تصبح صفة من أربع، للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العَصر] فحكم المولى ﷻ على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصالح.

٣ ـ التواصي بالحق.

٤ ـ التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان، والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، «والتواصي بالصبر، كذلك ضرورة، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، وتنفج الشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية»[٢].

---

(١) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن (ص ١٧٠).

(٢) انظر: الظلال (٦/ ٣٩٦٨).

(ب) كثرة الدعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾؛ فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصلة بالله، وكثرة الدعاء، لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر[1].

(جـ) الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ولا بد عند إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة، والمنهج الرباني، ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢] ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العمل، ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية، وبموافقة السنّة والشرع.

(د) الثبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم، ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣].

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، إيمان، ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق، لأن الإيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، ويبعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع. والرجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف، غير مهتمة بالصغائر والصغار، وإنما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع. والصدق يحول دون التحول أو التغيير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان، وإن رأى شعاع السيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى الدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.

ولا شك أن اللبنات التي تعد لحمل الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الحضارة تحتاج إلى

(١) انظر: فقه التمكين من القرآن الكريم (ص ٢٢١).

الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية، والغايات الجميلة، والقيم الرفيعة[١].

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدعوة في بطون قريش، وعالميتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي، والعصبية لحماية الدعوة الجديدة، ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليه العشائر الأخرى، بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة، دون تحفظات متصلة بالعصبية؛ فأبو بكر الصديق من «تَيْم»، وعثمان بن عفان من «بني أمية»، والزبير بن العوام من «بني أسد»، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدار»، وعلي بن أبي طالب من «بني هاشم»، وعبد الرحمٰن بن عوف من «بني زُهرة»، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ»، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح»؛ بل إن عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هُذَيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مَذْحِج، وزيد بن حارثة والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من «بني النَّمر بن قاسط». لقد كان واضحًا أن الإسلام لم يكن خاصًّا بمكة[٢].

لقد شق النبي ﷺ طريقه بكل تخطيط ودقة، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس، من ظلمات الشرك والجاهلية، إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها، منذ خطواتها الأولى، حيث إن القرآن المكي بيَّن شمول الدعوة وعالميتها:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَلَم: الآية ٥٢].

---

(١) انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة (ص ٩١، ٩٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٣٣).

إن الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى. وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها: الإعلان والصدع، والبلاغ، والبيان والإنذار، وتَحَمُّل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء والقتل.

إن استسرار النبي ﷺ في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة، وضعفها، وغربتها، وينبغي أن يفهم هذا ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار، سياسة مصلحية في كثير من أمور الإسلام، في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل، والخطط، والتفصيلات فهو أمر مصلحي، خاضع للنظر والاجتهاد البشري؛ إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ، ومن ذلك - مثلاً - معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرًّا متى كانت المصلحة في ذلك، مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ، ولهذا فإن النبي ﷺ حتى بعد أن صدع بدعوته، وأنذر الناس، وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم، وماهي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي[1].

المبحث الثالث

البناء العقدي في العهد المكي

أولاً: فقه النبي ﷺ في التعامل مع السنن:

إن بناء الدول وتربية الأمم، والنهوض بها، يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب، والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، نراه قد تعامل مع السنن والقوانين، بحكمة وقدرة فائقة.

إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان، في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جدًّا، والذي يهمنا منها في هذا الكتاب ما يتعلق بحركة النهوض تعلقًا وثيقًا.

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث من سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها،

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٢٤- ١٢٦).

والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع المسلم، المستقيم على أمر الله. والقرآن الكريم حينما يوجه أنظار المسلمين إلى سنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعًا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب، والأمم والدول، والأفراد، جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، والحياة لا تجري في الأرض عبثًا؛ وإنما تتبع هذه النواميس؛ فإذا درس المسلمون هذه السنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه[١].

والسنن التي تحكم الحياة واحدة؛ فما وقع منها من زمان مضى، سيقع في كل زمان[٢].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين، «فإن التمكين لا يأتي عفوًا ولا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط عشواء، بل إنه له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة»[٣].

«إن أول شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد، والمجتمعات، والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه فقهًا شاملاً رشيدًا هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلٰهي، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السنن»، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية، والمعادلات الحضارية[٤].

يقول الأستاذ البنا في منهجية التعامل مع السنن:

«ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلُوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وماهي منكم ببعيد»[٥].

ونلاحظ عدة أمور مهمة:

١ ـ عدم المصادمة.

٢ ـ المغالبة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٤٧٨).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/٤٧٨).

(٣) انظر: جيل النصر المنشود للقرضاوي (ص ١٥).

(٤) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر الإمام البنا (ص ٥٨).

(٥) انظر: رسالة المؤتمر الخامس (ص ١٢٧).

٣ ـ الاستخدام.

٤ ـ التحويل.

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعض.

٦ ـ ترقب ساعة النصر[١].

إن ما وصل إليه الأستاذ البنا يدل على دراسته العميقة للسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وتجارب الشعوب، والأمم، ومعرفة صحيحة للواقع الذي يعيشه، وتوصيف سليم للداء والدواء.

إن حركة الإسلام الأولى التي قادها النبي ﷺ، في تنظيم جهود الدعوة، وإقامة الدولة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، خضعت لسنن وقوانين قد ذكرت بعضها بنوع من الإيجاز، كأهمية القيادة في صناعة الحضارات، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في مقاومة الباطل، وأهمية المنهج الذي تستمد منه العقائد، والأخلاق، والعبادات، والقيم والتصورات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنة التدرج، وهي من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

ومنطلق هذه السنة أن الطريق طويل، لا سيما في هذا العصر الذي سيطرت فيه الجاهلية، وأخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد قد تَجَذَّر في الشعوب، واستئصاله يحتاج إلى تدرج.

فقد بدأت الدعوة الإسلامية الأولى متدرجة، تسير بالناس سيرًا دقيقًا، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس، ثم مرحلة المواجهة والمقاومة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[٢].

واعتبار هذه السنة في غاية الأهمية «ذلك أن بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، يحسون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون أن يغيروا الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في طرفة عين، دون النظر في العواقب، ودون فهم للظروف، والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل»[٣].

«إننا إذا درسنا القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأي تدرج

---

(١) انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة (ص ٥٨).

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٢٧).

(٣) انظر: آفات على الطريق (١/ ٥٧) وما بعدها.

وانسجام، تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي ﷺ... فلقد كانت الأمور تسير رويدًا رويدًا، حسب مجراها الطبيعي حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين...»[١].

«وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج، ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة، يكون التمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا، فلا نتوهم أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصدر من رئيس، أو ملك، أو من مجلس قيادي، أو برلماني.. إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أي بالإعداد، والتهيئة الفكرية، والنفسية، والاجتماعية.

وهو المنهج نفسه الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة، كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها، ونشرها في الآفاق.. ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين»[٢].

ثانيًا: سنة التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

من السنن الهامة على طريق النهوض: السنة التي يقررها قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: الآية ١١] وارتباط هذه السنة الربانية بالتمكين للأمة الإسلامية واضح غاية الوضح، ذلك أن التمكين لا يمكن أن يتأتى في ظل الوضع الحالي للأمة الإسلامية، فلا بد من التغيير، كما أن التمكين لن يتحقق لأمة ارتضت لنفسها حياة المذلة، والتخلف، ولم تحاول أن تغير ما حل بها من واقع، وأن تتحرر من أسره[٣].

إن التغيير الذي قاده النبي ﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[٤].

لقد قام النبي ﷺ - بمنهجه القرآني - بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ماحوله في دنيا الناس، فتغيرت المدينة، ثم مكة، ثم

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية - نقلاً عن المودودي (ص ٢٢٩).

(٢) انظر: الخصائص العامة للإسلام (ص ١٦٨) بتصرف يسير.

(٣) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢١٠).

(٤) انظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، لتوفيق محمد سبع (ص ٣٦٧).

الجزيرة، ثم بلاد فارس والروم، في حركة عالمية، تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة، فكان يعرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوبهم معاني الإيمان، وحدث لهم تحول عظيم، قال تعالى موضحًا ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

ثالثًا: تصحيح الجانب العقدي لدى الصحابة:

كان تصور الصحابة - ﷺ - لله قبل البعثة تصورًا فيه قصور ونقص، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]، فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وإيضاحها للناس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب، والنبيين، والقدر، خيره وشره، واليوم الآخر، وإثبات الرسالة للرسلت، والإيمان بكل ما أخبروا به[١].

وتربى الرعيل الأول رضوان الله عليهم، على فهم صفات الله وأسمائه الحسنى، وعبدوه بمقتضاها، فَعَظُمَ الله في نفوسهم، وأصبح رضاه سبحانه غاية مقصدهم وسعيهم، واستشعروا مراقبته لهم في كل الأوقات[٢].

إن التربية النبوية الرشيدة للأفراد على التوحيد، هي الأساس الذي قام عليه البناء الإسلامي، وهي المنهجية الصحيحة التي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل.

وقد آتت تربية الرسول ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة، فتطهر الصحابة في الجملة مما يضاد توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتبعوا أحدًا على غير مرضاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا إلى الله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا الله وحده، ولم يذبحوا إلا الله، ولم ينذروا إلا الله، ولم يستغيثوا إلا بالله، ولم يستعينوا - فيما لا يقدر عليه إلا الله - إلا بالله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا، أو يحجوا أو يطوفوا أو يتعبدوا إلا لله وحده، ولم يشبهوا الله لا بالمخلوقات ولا بالمعدومات بل نزهوه غاية التنزيه[٣].

وكما رسَّخ القرآن المكي في قلوب الصحابة ﷺ العقيدة الصحيحة، حول التوحيد

---

(١) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة، علي العلياني (ص ٤٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٣).

(٣) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة (ص ٥٤، ٥٥).

بأنواعه، وحول الرسول ﷺ والرسالة، صحح عقيدتهم حول سائر أركان الإيمان الأخرى.

رابعًا: وصف الجنة في القرآن الكريم وأثره على الصحابة:

ركز القرآن المكي على اليوم الآخر، غاية التركيز، فَقَلَّ أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة، وأحوال المنعَّمين، وأحوال المعذَّبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم، حتى لكأن الإنسان يرى يوم القيامة رأي العين.

١ ـ الجنة لا مثيل لها:

وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة وواصفة للجنة، بما لا يمكن أن يكون له مثيل في الكون، فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيما تأثير.

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المتقين، نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولىﷻ شيئًا من نعيمها، إلا أن ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٦ ـ ١٧].

٢ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتُنْجنا من النار؟ قال: «فَيُرْفَعَ الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»، وجاء في رواية أخرى: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يُونس: الآية ٢٦] (١).

إن التصور البديع للجنان، والاعتقاد الجازم بها، مهم في نهضة أمتنا، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمة، يندفعون لمرضاة الله تعالى، ويقدمون الغالي والنفيس ويتخلصون من الوهن وكراهة الموت، وتتفجر في نفوسهم طاقات هائلة تمدهم بعزيمة وإصرار، ومثابرة على إعزاز دين الله.

خامسًا: وصف النار في القرآن الكريم وأثره في نفوس الصحابة:

كان الصحابة يخافون الله تعالى، ويخشونه ويرجونه، وكان لتربية الرسول ﷺ أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله ﷺ يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة، لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة ومعالمها، من قبض الأرض ودكها،

---

(١) مشكاة المصابيح للبغوي (٣/ ٨٨ ورقمه ٥٦٥٦)، رواه مسلم.

وطي السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم. وصَوَّر القرآن الكريم حال الكفار، وذلتهم وهوانهم، وحسرتهم ويأسهم، وإحباط أعمالهم، وتحدث القرآن الكريم عن حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلاص المؤمنين من المنافقين[١]، وكان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصحابة، وَصَوَّر القرآن الكريم ألوان العذاب في النار، فأصبح الرعيل الأول يراها رأي العين.

سادسًا: مفهوم القضاء والقدر، وأثره في تربية الصحابة ﷺ:

اهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٤٩].

وكان ﷺ يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر.

فكان للفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ في قلوب الصحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمار نافعة ومفيدة، عادت عليهم بخيرات الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات:

١ ـ أداء عبادة الله ﷻ.

٢ ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك، لأن المؤمن يعتقد أن النافع والضار، والمعز والمذل، والرافع والخافض هو الله وحده سبحانه وتعالى.

٣ ـ الشجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون أن الآجال بيد الله تعالى، وأن لكل نفس كتاباً.

٤ ـ الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب.

٥ ـ سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال.

٦ ـ عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين.

إن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة وهذه من باب الإشارة.

ولم تقتصر تربية الرسول ﷺ لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان الستة المتقدمة، بل صحح عندهم كثيرًا من المفاهيم والتصورات، والاعتقادات من الإنسان والحياة والكون، والعلاقة بينهما، ليسير المسلم على نور من الله، يدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق، ويتحرر من الوهم والخرافات[٢].

---

(١) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٤٠٢).

(٢) انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية (ص ٥٩).

سابعًا: معرفة الصحابة لحقيقة الإنسان:

إن القرآن الكريم عرّف الإنسان بنفسه، بعد أن عرفه بربه، وباليوم الآخر، ويجيب عن تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كل إنسان سَويّ، وتلح في طلب الجواب[١].

وبيّن القرآن الكريم للصحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانية، وأصولهم التي يرجعون إليها، وماهو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وماهو مصيرهم بعد الموت؟

ثامنًا: تصور الصحابة لقصة الشيطان مع آدم عليه السلام:

كان رسول الله ﷺ من خلال المنهج القرآني، يحدثهم عن قصة الشيطان مع آدم، ويشرح لهم حقيقة الصراع بين الإنسان مع عدوه اللدود، الذي حاول إغواء أبيهم آدم عليه السلام، من خلال الآيات الكريمة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧].

كانت الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم وصراعه مع الشيطان قد علّمت الرعيل الأول قضايا مهمة في مجال التصور والاعتقاد والأخلاق منها:

١ ـ أن آدم هو أصل البشر.
٢ ـ جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله.
٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة.
٤ ـ خطيئة آدم تعلم المسلم ضرورة التوكل على ربه.
٥ ـ ضرورة التوبة والاستغفار.
٦ ـ الاحتراز من الحسد والكبر.
٧ ـ إبليس هو العدو لآدم وزوجه وذريتهما.
٨ ـ التخاطب بأحسن الكلام بين الصحابة الكرام.

من الوسائل التي استخدمها الصحابة الكرام لمحاربة الشيطان امتثالهم قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣].

هذه صورة موجزة عن حقيقة إبليس وتصور الصحابة رضي الله عنهم لهذا العدو اللعين.

تاسعًا: نظرة الصحابة إلى الكون والحياة وبعض المخلوقات:

ظل رسول الله ﷺ يعلم الصحابة كتاب الله تعالى، ويربيهم على التصور الصحيح في

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (٢/ ٥٤).

قضايا العقائد، والنظر السليم للكون والحياة، من خلال الآيات القرآنية الكريمة، فبيّن لهم بدء الكون ومصيره.

وقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان، لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي قررها في كل جوانب الكون والحياة.

وهكذا نَظَّم القرآن الكريم أفكار وتصورات الرعيل الأول عن الكون، ومافيه من مخلوقات وعجائب، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية، واستمر النبي ﷺ في غرس حقيقة المصير، وسبيل النجاة في نفوس أصحابه، موقنًا أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك السبيل حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز، وركز ﷺ في هذا البيان على جانب مهم هو:

أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير.

إن كثيرًا من العاملين في مجال الدعوة؛ بهتت في نفوسهم حقيقة أن الدنيا لهو ولعب وغرور، لأنهم انغمسوا في هذه الحياة الدنيا ومتاعها، وشغفتهم حبًّا، فهم يلهثون وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيد، فهو لا يشبع ولا يقنع، بسبب التصاقه بالدنيا، وإنها لكارثة عظيمة على الدعوة والنهوض بالأمة، أما التمتع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشرع، واتخاذها مطية للآخرة، فذلك فعل محمود.

المبحث الرابع

البناء التعبدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات:

رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم، ومن أهمها:

١ ـ التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى.

٢ ـ التأمل في علم الله الشامل، وإحاطته الكاملة بكل مافي الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة.

٣ ـ عبادة الله ﷻ، من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرًا، إذ العبادة غاية التذلل لله سبحانه، ولا يستحقها إلا الله وحده.

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

أ ـ **النوع الأول**: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

ب ـ **النوع الثاني**: العبادات بمعناها الواسع، ويشمل كل شيء يُنْتَوى به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى فهو عبادة يثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة[١].

إن تزكية الروح بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها وتتصل بخالقها لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقودًا وزادًا ودفعًا قويًا إلى القيام بما تؤمر به.

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم، ولعل من أبرز آثارها التي أصابت الرعيل الأول:

١ ـ **الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه**: وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: الآية ٣٨].

وكان الرعيل الأول يرى أن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثيرًا في النفس وتزكية للروح.

٢ ـ **مناجاة العبد لربه**: وقد بيّن رسول الله ﷺ مشهدًا من مشاهد هذه المناجاة، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حَمِدني عبدي.

وإذا قال: الرحمٰن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين: قال مجّدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٢].

٣ ـ **طمأنينة النفس وراحتها**: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٣]، وقد جُعلت قرة عينه في الصلاة[٤]، وقد علّم الرسول ﷺ الصحابة كيف تصبح الصلاة سلاحًا مهمًا لحلّ همومهم ومشاكلهم.

---

(١) فقه الدعوة، د. علي عبد الحليم محمود (١/ ٤٧١، ٤٧٢).

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

(٣) أبو داود في الصلاة (رقم ١٣١٩).

(٤) الحاكم (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

٤ ـ **الصلاة حاجز عن المعاصي**: قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥].

كان الصحابة ﷺ عندما يؤدون صلاتهم تستريح بها نفوسهم، وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، فكانت لهم سياجًا منيعًا حماهم من الوقوع في المعاصي(١).

ثانيًا: التربية العقلية:

كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه شاملة، لأنها مستمدة من القرآن الكريم، الذي خاطب الإنسان، ككل يتكون من الروح، والجسد، والعقل. فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر، والتأمل والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني.

ولذلك وضع القرآن الكريم منهجًا، لتربية العقل، سار عليه رسول الله ﷺ لتربية أصحابه ومن أهم نقاط هذا المنهج.

١ ـ تجريد العقل من المسلّمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد.

٢ ـ إلزام العقل بالتحري والتثبت.

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون.

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله.

٥ ـ دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء، والأجداد والأسلاف، ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

ثالثًا: التربية الجسدية:

حَرَص النبي ﷺ على تربية أصحابه جسديًا، واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته التي خلق لها، من دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى.

ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشري على النحو التالي:

١ ـ ضبط حاجته إلى الطعام والشراب.

٢ ـ وضبط حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من

---

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/ ٢٢٧).

عاديات الحر والبرد، وندب إلى ما يكون زينة عند الذهاب إلى المسجد.

٣ - وضبط الحاجة إلى المأوى.

٤ - وضبط حاجته إلى الزواج والأسرة بإباحة النكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزنا، والمخادنة، واللواط.

٥ - وضبط حاجته إلى التملك والسيادة، وأباح التملك للمال والعقار، وَفْق ضوابط شرعية.

٦ - وضبط الإسلام السيادة بتحريم الظلم، والعدوان والبغي.

٧ - وضبط حاجته إلى العمل والنجاح؛ بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعًا، وغير ضار بأحد من الناس، ونادى على المسلمين أن يعملوا في هذه الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله سبحانه.

٨ - وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة.

هذه بعض الأسس التي قامت عليها التربية النبوية للأجسام، حتى تستطيع أن تتحمل أثقال الجهاد، وهموم الدعوة، وصعوبة الحياة.

رابعًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرذائل:

إن الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى رسول الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعة.

فعن النبي ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليُبْغِض الفاحش البذيء»[(١)].

وسئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»[(٢)].

إن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب؛ إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك[(٣)]؟

---

(١) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (رقم ٢٠٠٢)، «حسن صحيح».

(٢) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (رقم ٢٠٠٤)، «صحيح غريب».

(٣) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب (ص ١٣٠).

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا، والأمثلة على ذلك كثيرة[١].

لقد تربى الصحابة ﷺ على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق[٢]، فكانت أخلاق الصحابة ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثوبته.

إن الأخلاق في التربية النبوية شيء شامل، يعم كل تصرفات الإنسان، وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق، هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق، هي التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق، هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاق، هي الانتصار، أي رد العدوان، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكَيِّفه، ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد ـ أي: إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقي الذي رسمته آيات سورة (الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨) مدحًا وذمًا، لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء، والجدل بالباطل مغالبة وتطلعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف، مع ضلالة وبهتانه، وكلها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعدما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها.

خامسًا: تربية الصحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآني:

إن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم، والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أمورًا تاريخية، لا تفيد إلا المؤرخين، وإنما هي أعلى وأشرف وأفضل من ذلك، فالقصص القرآني مملوء بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصة يوسف عليه السلام، متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في

---

(١) انظر: آيات سورة (المؤمنون ـ الآيات: ١ـ ١١)، وسورة (الأنعام ـ الآيات: ١٥١ـ ١٥٣)، وسورة (الرعد، الآيات: ١٩ـ ٢٢) وسورة (الإسراء الآيات: ٢٣ـ ٣٨) وغيرها.

(٢) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٥٩١).

مشاهدها الرائعة، قال علماء الأخلاق والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًّا فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيسًا فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف عليه السلام، حاز من كمال المرسلين، وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هديًّا لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر مايليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها اثنتي عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهًا للمتعلمين الساعين للفضائل»[1].

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ ـ العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٧].

٣ ـ وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يُوسُف: ٥٩ ـ ٦٠] فبداية الآية لين، ونهايتها للشدة.

٤ ـ ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥].

٥ ـ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٨].

٦ ـ جودة المصوِّرة، والقوة المخيلة، حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧ ـ استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]. ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٩/ ٣١٠).

٨ ـ شفقته على الضعفاء، وتواضعه، مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٩] . وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] . والثاني بقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٧] . وشهدا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٦] .

٩ ـ العفو مع المقدرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢] .

١٠ ـ إكرام العشيرة: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٣] .

١١ ـ قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤] .

١٢ ـ حسن التدبير: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٧] تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العلم.

لا شك أن العلاقة بين القصص القرآني والأخلاق متينة، لأن من أهداف القصص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة، التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والأمة، والحضارة. كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سببًا في هلاك الأمم والشعوب.

لقد استخدم المنهاج النبوي أساليب التأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي سواء كانت اعتقادية، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عبادية، كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس. ومع تطور الدعوة الإسلامية، ووصولها إلى الدولة أصبحت هناك حوافز إلزامية تأتي من خارج النفس متمثلة في:

أ ـ التشريع:

الذي وضع لحماية القيم الخلقية، كشرائع الحدود، والقصاص، التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل أو السرقة) وانتهاك الأعراض: (بالزنى، والقذف) أو البغي على النفس، وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب ـ سلطة المجتمع:

التي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسؤولية بعضهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤولية قرينة الزكاة، والصلاة، وطاعة الله ورسوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٧١].

بل جعلها المقوم الأصلي لخيرية هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

وقد ظهرت هذه السلطة وأثرها في الفترة المدنية.

جـ ـ سلطة الدولة:

التي وجب قيامها، وأقيمت على أسس أخلاقية وطيدة، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثها في سائر أفرادها، ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته[1]. وبذلك اجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كلها، وأصبح للمجتمع النبوي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائدي والروحي والأخلاقي في الفترة المكية، ولقد آتت هذه التربية أُكُلها، فقد كان ما ينوف على العشرين من الصحابة الكرام الخمسين الأوائل السابقين إلى الإسلام مارسوا مسؤوليات قيادية، بعد توسع الدعوة وانطلاقها، في عهد النبي ﷺ، وبعد وفاته، وأصبحوا القادة الكبار للأمة، وعشرون آخرون منهم معظمهم استشهدوا أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ؛ فكان في الرعيل الأول أعظم شخصيات الأمة على الإطلاق، كان فيهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ، ومنهم نماذج ساهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم. وكان من هذا الرعيل أعظم نساء الأمة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عالية أخرى؛ مثل أم الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس، وغيرهن.

لقد أتيح للرعيل الأول أكبر قدر من التربية العقدية، والروحية، والعقلية، والأخلاقية.. على يد مربي البشرية الأعظم محمد ﷺ، فكانوا هم حداة الركب، وهداة الأمة[2]، فقد كان

(١) المنهاج القرآني في التشريع (ص ٤٣٣). (٢) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ٢٠١).

رسول الله ﷺ يزكيهم ويربيهم، وينقيهم من أوضار الجاهلية، فإذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله ﷺ ولو مرة واحدة في حياته وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويتعبق من نوره، ويتغذى من كلامه، ويتربى على عينه[1].

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).